﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود: 57]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان العلاقة بين استيفاء تبليغ الدَّعوة، وتحميل القوم مسؤوليَّة اختيارهم

لمّا استوفى هود ﷺ تشييدَ أمر دعوته، ووجَّه سهام الهدم إلى ظنونهم وافترائهم؛ أخذ يحذِّرهم[1]، بتحميلهم تبعةَ كفرهم وإعراضهم عن دعوته، قائلًا: لقد أبلغتكم رسالة ربّي إليكم، وليس عليّ غير البلاغ، وقد لزمتكم الحجَّة[2]، فإن آمنتم بالإله الذي آمنت به، والَّذي أدعوكم إليه، فقد اهتديتم، ورشدتم، وإن تتولّوا؛ فلا متعلِّق لكم بي[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: أصْلُ (ولي): يَدُلُّ على قُرْبٍ، منْ ذلك الوَلِيُّ: القُرْبُ، يقال: تَباعَدَ بعد ولْيٍ، أي: قُرْبٍ، وجَلَسَ ممّا يَليني، أي: يُقارِبُني[4]، والولايَةُ: تَولّي الأمرِ، فإذا عُدّي (تَولَّى) بنفسِه؛ اقتَضَى معنَى الولايَةِ، وحُصولِها في أقْرَبِ المواضِعِ، وإذا عُدّي بـ (عَنْ) لفظًا أو تقديرًا؛ اقتَضَى معنَى الإعراضِ وتَرْكِ قُرب الشيء؛ فمنَ الأوَّل قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ [المائدة: 51]، ومنَ الثّاني قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران: 63][5]. والفعل في الآية الثانية: ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ فعلٌ مضارعٌ، أصله: تتولوا، بتاءين، فحُذفَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/312.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/50.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/157.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/102.

حرفُ المضارعة وهو التاء الأولى؛ تخفيفًا لثقل تَكرار التّاء، والمرادُ بالتَّولي في الآيةِ: الإعْراضُ والإدبارُ[1].

2) ﴿أَبْلَغْتُكُم﴾: أصْلُ البُلوغِ لُحوقُ الشَّيْءِ، والوُصولُ إليه أو المُشارَفَةُ عليه[2]، يُقالُ: بَلَغْتُ المَكانَ بُلوغًا، أي: وصَلْتُ إليه، وكذلك إذا شارَفْت عليه، فالإبلاغُ: الإيصالُ، وكذلكَ التَّبليغُ، والاسْمُ منه البلاغُ[3]. ويُقالُ: بَلَّغْتُ القومَ بَلاغًا، اسْمٌ يَقومُ مَقامَ التَّبْليغِ[4]. وتقولُ: له في هذا الأمر بلاغٌ وبُلغةٌ وتَبَلُّغ، أي: كِفايَة، وشيءٌ بالغ، أي: جَيِّدٌ، والمبالغةُ: أن تبلغ من العَمَل جهدَك[5]. والمقصود من الإبلاغ في الآية: جَعْلُ الشَّيءِ بالغًا، وهو هنا استِعارةٌ لإعلام هود عليه السلام شرع الله لقومه.

3) ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾: أصلُ (خلف) منَ الإخْلافِ، وهو: مجيءُ شيءٍ بعد شيءٍ يَقومُ مَقامَهُ[6]، فالخَلَفُ: المُتَأخِّرُ، سواء كان تَأخُّرُه في الزَّمَنِ، أم في الرُّتبَةِ، يُقال: فُلانٌ خَلَفٌ لأبيه، أيْ: جاءَ بَعْدَهُ[7]. واسْتَخْلَفَ فُلانًا منْ فُلانٍ: جَعَلَهُ مَكانَهُ، وخَلَفَ فُلانٌ فُلانًا؛ إذا كانَ خَليفَتَه، والخَليفةُ: الَّذي يُسْتَخْلَفُ ممَّنْ قَبْلَهُ، والجمع خَلائِف، جاؤوا بِهِ على الأصل مثْلَ كريمةٍ وكرائِمَ، وهو الخَليفُ والجَمْعُ خُلَفاء[8]. والمقصود بالخَلَفِ في الآية: العِوضُ عَنْ شَيءٍ فائِتٍ، والسّينُ والتّاءُ فيهِ لِلتَّأْكيدِ، أي: بقوم يَخْلُفونكم.

4) ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾: أصلُ الضَّرَرِ: النُّقْصانُ يَدْخُلُ في الشَّيءِ، يُقالُ: دَخَلَ عليه ضَرَرٌ في ماله[9]، وضِدُّهُ: النَّفْعُ والسَّعَةُ، والضَّرَرُ: المَكروهُ والأذَى، وضَرَّ فُلانًا ضُرًّا وضَرَرًا؛ إذا ألحَقَ به مَكروهًا أو أذًى[10]، وكلُّ ما كانَ من سوء حالٍ وفَقْرٍ، في بدنٍ، فهو ضُرٌّ، وما كانَ ضِدًّا للنَّفع؛ فهو ضَرٌّ[11]، والضُّرُّ المقصود في الآية النُّقصان، أي: ولا يدخل مُلْكَهُ بإهلاككم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بلغ).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بلغ).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بلغ).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (بلغ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(8) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(9) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (ضرَّ - ضرر).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (ضر).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضر).

نَقْصٌ[1]، واللّه غنيٌّ عن عباده، لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضرُّهُ معصية من عصاه.

5) ﴿حَفِيظٌ﴾: أصلُ (حفظ): يَدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيْءِ، يقال: حَفِظْتُ الشَّيْءَ حِفْظًا[2]، ويأتي الحِفْظُ بمعنى: الرِّعايَةِ والعِنايَةِ، وضِدُّهُ التَّضْييعُ والتَّفْريطُ، والحِفْظُ أيْضًا: التَّعاهُدُ وقِلَّةُ الغَفْلَةِ، وضِدُّهُ النِّسْيانُ، يقال: حَفِظَ الكلامَ، أي: تَعاهَدَهُ، ولَمْ يَنْسَهُ[3]. والحَفيظُ: الموكَّلُ بالشَّيْءِ يَحْفَظُهُ، وكذلك الحافِظُ، والحَفيظُ أيضًا: الرَّقيبُ، قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشّورى: 6] والحَفَظَةُ: الجَماعَةُ؛ منه[4]، والمقصود بالحفيظ في الآية: الذي يضع المَحْفوظ، بِحَيْثُ لا يَنالُهُ أحَدٌ غيرُ حافِظِهِ، وهو هنا كنايةٌ عَنِ القُدْرَة والقَهْرِ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بلاغُ هودٍ رسالةَ ربِّـه، وإصـرارُ قومه على الكفر والعـصـيـان واسـتـعـجـالِ العذاب

أبلغَ هود رسالتَه في بيانٍ ورِفْقٍ، ولم يكن رِفقه ضعفًا في جنب اللّه، ولكنَّهم أصرّوا على الكُفر والعِصيان، واستعجلوا العذاب الَّذي كان يُذكِّرهم به أثناء تبليغ رسالة ربِّه، عندئذٍ ذكَّرهم بعاقبة أمرهم، فقال تعالى مُخبرًا عنه: فإن تُعرِضوا عمّا أدعوكم إليه من عِبادةِ اللّه وحدَه، فقد قامت عليكم الحُجَّةُ، بإبلاغي إيّاكم رسالةَ اللّه، ولم تبقَ عليَّ تَبِعَةٌ من شأنِكم، ويَستبدِلُ ربّي قومًا غيرَكم يُطيعونَه، ويعبُدونَه وحدَه، بعد أن يُهلِكَكم، ولا تضُرّونَ اللّه شيئًا بكُفرِكم، إنَّ ربّي ذو حِفظٍ لكُلِّ شَيءٍ، حافِظٌ لأقوالِ عبادِه وأفعالِهم، ويجزيهم عليها، ويحفَظُني من أن تنالوني بسوءٍ[6].

(1) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/221.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حفظ).
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (حفظ).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (حفظ).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/103.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/451، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/53، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/330، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3720.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أمانةِ الرسول الكريم هودٍ ﷺ وتبليغه رسالةَ ربِّه لقومه غايةَ البيان، وبراءةِ ذمَّتِه في هذه المهمة النَّبيلة، وأنَّ المقصودَ من بَعث الرُّسلِ هو عبادةُ اللّٰه وحده، فإن لم يؤمن المُرسَلُ إليهم وحصلَ منهم العنادُ والكفر، فيَخْلفهم اللّٰه بقومٍ آخرين يعبدونه، ولا يشركون به شيئًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾:

تفريع التّولّي على التّحدّي والإشهاد، يبرز المعنى المستفاد

الفاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾، تدلُّ على التَّفريع والتَّفصيل الوارد على لسان هود، ففرَّعت الجملة الشَّرطيَّة على الجملة، في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾، وما بين الجملتين من قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، اعتراضٌ أوجبه قصدُ المبادرة بإبطال باطلهم؛ لأنَّ مضمون هذه الجملة تفصيلٌ لمضمون الجملة الَّتي ذكر فيها الإشهاد[1].

دلالة الجملة الشَّرطيَّة في الآية الكريمة:

التَّولّي عن الحقِّ نتائجه أليمة، وعواقبه وخيمة

جُعِل التَّولّي شرطًا في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾، وذلك يجعل ما علَّق به من الجواب المسبَّب عنه واقعًا على وجه التَّأكيد؛ فإنَّ الجملة الشَّرطيَّة يتعلَّق فيها الجواب بالشَّرط، تعلُّقًا قطعيًّا، فإذا وقع الشَّرط، فإنَّ الجواب متحقِّق على وجه القطع، فأخبرهم أنَّهم إن تولَّوا عن دعوته؛ فإنَّ جزاءهم محقَّق لا محالة.

غرضُ حذف التّاء في ﴿تَوَلَّوْا﴾:

تقليل المبنى في الألفاظ، يدلُّ على تقليل المعنى المسوق

حذف النَّظم الكريم التّاء من الفعل في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/101.

﴿تَوَلَّوْاْ﴾ وأصله: (تتولّوا) اختصارًا، والحذف في المبنى يدلُّ على التَّقليل في المعنى، وكأنَّه أشار إلى أنَّهم إن تولّوا، ولو أدنى تولية[1]، فإنَّ جواب الشَّرط سيتحقَّق بتلك التَّولية.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم﴾:

الفاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۖ﴾، تدلُّ على التَّعليل، وهي ليست رابطة لجواب الشَّرط؛ لأنَّ الإبلاغ ليس جوابًا للتَّولّي، ولا مسبِّبًا له، فتكون الجملة المصدَّرة بالفاء مسوقة للتَّعليل، والتَّقدير: فإنَّ اللَّوم عليكم وحسب؛ وعلَّة ذلك أنّي فعلتُ ما عليَّ، فقد أبلغتكم ما أرسلت به[2].

تحقُّق التَّبليغ، علَّة لوقوع اللَّوم، بالجزاء المبهم المهول

دلالة حذف جواب الشَّرط في الآية الكريمة:

حذف النَّظم الجليل جواب الشَّرط في هذه الآية من قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۖ﴾، فلم يبيِّن ما جزاء التولّي؛ وذلك ليذهب بهم الظَّنُّ في توقُّعه مذهبه، وإبقاء الجزاء مجهولًا؛ فيه من التَّهويل البليغ ما يناسب مقام التَّهديد، ولا يصحُّ أن يكون قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ جوابًا؛ لأنَّ التَّبليغ ليس متعلِّقًا بتولّيهم، ولا معقودًا به، بل هو دليل جواب الشَّرط، والتَّقدير: فإن تتولَّوا؛ فعليكم تبعة أعمالكم، فجملة: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم﴾، تعليلٌ لجواب الشَّرط المقدَّر، أي: (إن تتولّوا لا أبالي؛ لأنَّني قد أبلغتكم)، وذلك كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ [العنكبوت: 5]، فالجواب محذوف؛ لأنَّ الجوابَ يجب أن يكون مسبَّبًا عن الشَّرط، وأجل الله آتٍ، سواء وجد الرَّجاء أم لم يوجد، وعليه فإنَّ جواب الشَّرط محذوفٌ، وتقديره: (فليبادر بالعمل، فإنَّ أجلَ الله لآتٍ)[3].

الجزاء المجهول، أبلغ في التَّهديد، وأوضح في البيان عن الحال

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/312.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/312.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/296.

بلاغة التَّعبير باللَّفظ المذكور على المحذوف:

الإيفاء بالتَّبليغ يحصر اللَّوم عليهم بتولّيهم عن الهدى

جعل النَّظم الجليل جواب الشَّرط محذوفًا، وجعل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾، دليلًا على الجواب المحذوف الذي تقديره: (فعليكم تبعة ذلك)، ومضمون الجملة ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾، من الإبلاغ هو دليل الجواب؛ لأنَّ الإبلاغ سابق للتَّولّي، فلا يكون جوابه، والجواب هو لازم ذلك الإبلاغ، وهو كون تبعة اللَّوم واقعةً عليهم، "فكأنَّه قيل: فإنْ تتولَّوا؛ استؤصلتم بالعذاب، ويدلُّ على ذلك الجملة الخبريَّة، وهي قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾"[1]، فالمراد من دليل جواب الشَّرط، نزع التَّبعة عنه ﷺ، فالرَّسولُ مبلِّغٌ يهدي بالدِّلالة، وليس مسؤولًا عمَّن اختار الضَّلالة، أي: "فعليكم اللَّوم دوني؛ لأنّي فعلت ما عليَّ"[2].

دلالة ﴿مَّآ﴾ في ﴿مَّآ أُرْسِلْتُ﴾:

ألفاظ العموم في ذكر التَّبليغ، دليل الإيفاء بكلّ المُبَلَّغ به

عبَّر النَّظم الكريم بـ ﴿مَّآ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه قد أوفى الرِّسالة، بتبليغ كلِّ ما أرسل به، أي: أبلغتكم كلَّ شيء[3]، وذلك لما في ﴿مَّآ﴾ من دلالة على العموم، فهي تشمل كلَّ ما أُمر بأن يبلِّغه لهم، وقال لهم: "فإن تتولَّوا بأن تعرضوا، فقد أبلغتكم رسالة ربّي الذي ربّاني، وخلقني، ولم يبقَ بعد الرِّسالة إلّا أن ينزل بكم ما أنذركم به، وهو عذاب محيط مدمِّر"[4].

علَّة التَّعبير بالمبني للمجهول في ﴿أُرْسِلْتُ﴾:

يُكْتَفى بحضور المراد في الأذهان، عن ذكره بالألفاظ

قوله جلَّ شأنه: ﴿أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾، عبَّر فيه النَّظم البليغ بالفعل الماضي المبنيِّ للمجهول، إيجازًا في التَّعبير؛ إذ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/169.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/312.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/312.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3720.

لا مرسل غيرُ اللّٰه تعالى، وأنَّ الإرسال قد سبق، وهو حاصل ومقطوع به[1]، وأنَّ التَّبليغ بتلك الرِّسالة قد مضى، فوقع عليكم الاحتجاج، كما أنَّ في عدم ذكر المعروف؛ فيه تهويلٌ لشأنه، بتأكيد كونه حاضرًا، وإن لم نذكره بلفظه.

سرُّ التقديم في قوله: ﴿بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۖ﴾:

سياق الاحتجاج، وإيقاع التَّبعة على الكافرين، يجعل الرِّسالة أولى بالتَّقديم

قدَّم النَّظم الجليل، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۖ﴾، شبه الجملة الأولى: ﴿بِهِۦٓ﴾ على شبه الجملة الثانية: ﴿إِلَيۡكُمۡۖ﴾، فبدأ بما تضمَّن ضمير الرِّسالة، وأخر ضمير المرسَل إليهم؛ لأنَّه سبق ذكر الفعل ﴿أُرۡسِلۡتُ﴾، وهو أنسب لإتباعه بالمرسَل به دون المرسَل إليه، كما أنَّ الرِّسالة هي الَّتي تحقِّق الاحتجاج والتَّبرُّؤ منهم، فكان تقديمه أولى.

دلالة الجمع في خطاب هود لقومه:

الخطاب بصيغة الجمع، يشمل تعميم خطاب القوم جميعًا

في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۖ﴾، جاءت الضَّمائر بصيغة الجمع؛ لأنَّه خطاب هود ﷺ لقومه، وهو ظاهر؛ لأنَّ الضَّمائر أُجريت على وتيرة واحدة[2]، كما أنَّ فيه دلالةً على تعميم الخطاب للمخاطَبين، وأنَّه لم يخصَّ به فئة منهم.

بلاغة أسلوب الالتفات في الآية الكريمة:

الخطابُ بالإخبار عن التَّبليغ أوقع في إقامة الحجَّة

قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۖ﴾، إذا جُعِلَ الفعل ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ ماضيًا؛ فإنَّه سيكون خطابًا للغائبين، ثمَّ يكون الفعل ﴿أَبۡلَغۡتُكُم﴾ رجوعًا من الغَيبة إلى الخطاب على سبيل الالتفات، أي: فقد أبلغتكم[3]، فعدل من الغَيبة إلى الخطاب، لمواجهتهم بالحجَّة وجهًا لوجه، تأكيدًا لتبليغه لهم، وهناك التفات

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/101.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/169.

من الخطاب إلى المتكلِّم الحاضر في قوله: ﴿مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ﴾، وكلُّها من الالتفات البديع من حالة الغَيبة إلى الخطاب، إلى الحضور إلى الخطاب كرَّة أخرى، وهو تلوين في استعمال الصّيغ الصَّرفيَّة المختلفة من أجل التَّعبير عن الحوار المكرَّس بين أطراف هذه القصَّة الماتعة؛ لاستيعاب مناطاتها، والإحاطة بدوافعها، وآليات الخطاب فيها، والمآلات المنتظرة في نهايتها.

دلالةُ جملة الاستئناف في ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي﴾:

الجملة في قوله جل شأنه: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ استئنافيَّة، استُؤنِفت لبيان الوعيد لهم، أي: ويهلككم الله، ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم[1]، وذلك على قانون الاستعمال أو الاستبدال؛ إذ هلاك الكافرين، واستخلاف غير المذكورين، لا ينقص من ملك الله فتيلًا ولا قطميرًا، فالاستئناف وعيد لهم بالإهلاك.

ليس بعد الإعراض عن الهداية إلّا الإهلاك والعذاب في النِّهاية

وجهُ الإضافة في لفظ ﴿رَبِّي﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ اقتصر على ذكر كونه ربَّه، ولم يقل: (ربي وربُّكم)؛ لأنَّه في سياق الوعيد بالإهلاك، فلا يناسب أن يذكر كونه ربَّهم، واقتصر بذكر ﴿رَبِّي﴾، إشارةً إلى اللُّطف به، وإهلاك شانئيه، أي: فيهلككم، ويستخلف ربّي المحسنُ إليَّ، بإقامتي فيما يرضيه قومًا غيركم[2].

إهلاك المعاندين إحسان للرَّسول المبلِّغ، لا للكفّار المهلَكين

دلالةُ لفظ (القوم) في ﴿قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾:

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بأن المستخلَفين قوم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم قوم لهم شأن وقوَّة؛ فإنَّ لفظ القوم يدلُّ على الجماعة الَّذين يقومون قومة واحدة؛

الاستبدال بقوم لهم شأن من أشدِّ النِّكاية بالمستبدَلين

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/404.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/313.

إذا ناداهم المنادي، واستنجد بهم بعضهم، فلم يقل: (يستبدل غيركم)، بلا ذكر القوم؛ لأنَّ التَّصريحَ بكون من يأتي بعدهم لهم شوكة وقوَّة، أشدُّ إيلامًا لهم.

سرُّ تنكير لفظ القوم في ﴿قَوْمًا﴾:

الاستخلاف منَّةٌ من الله تعالى يضعها حيث يشاء

جاء التَّعبير بصيغة التَّنكير، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، والتَّعبير بصيغة التَّنكير، تفخيم لشأن هؤلاء القوم الَّذين سيخلفونهم؛ دلالة على أنَّ المخاطَبين مذمومون، وأنَّهم خالون من صفات التَّفضيل، ففيه إشارة إلى ذمِّهم والتَّهوين منهم، أي: "ويستبدلُ قومًا غيركم أطوع منكم، يوحِّدونه، ويعبدونهُ"[1].

غرضُ الوصفِ بالغيريَّة بلفظِ ﴿غَيْرَكُمْ﴾:

ضياع الأوطان بالاستبدال، من ألوان التَّنكيل والاستئصال

وصف النَّظم الكريم القوم المستخلَفين، بأنَّهم غيرُ المخاطَبين في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم قوم آخرون لا علاقة نسبيَّة بينهم، كما أنَّهم سيكونون من أهل الطاعة للّه مخالفين لهم في الدِّين، وهذا أشدُّ وقعًا عليهم من مجرَّد الاستئصال، بأن يجعل ذكرهم ممحيًّا، ومكانهم بغيرهم ممتلئًا، والذين يأتون بديلًا عنهم، سوف يستخلفهم اللّه لعمارة الأرض، وخلافة اللّه فيها، والاستبدال عقوبة، تقابل نعمة الاستعمال، والكافرون يُستبدَلون، ولا يُستعمَلون، بعكس المؤمنين الصّالحين.

دلالة نفي المضارع في: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ﴾:

انتفاء الإضرار المستحيل بالله، مستغرق الزّمان من أوّله إلى منتهاه

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع المنفي بـ ﴿وَلَا﴾ في الآية المباركة، من قوله: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾؛ للدَّلالة على تجدُّد النَّفي واستمراره، فانتفاء ضررِهم متجدِّد في كلِّ زمانٍ، فلا يأتي زمان يكون لهم فيه ضررٌ على اللّه تعالى؛ إذ هو الغنيُّ عن عباده، وهو يقول لهم: "ولن تضرّوا اللّه شيئًا من الضَّرر بسبب إصراركم

(1) ابن عادل، اللّباب: 10/509.

على كفركم، وإنَّما أنتم الَّذين تضرُّون أنفسكم، بتعريضها للدَّمار في الدُّنيا، وللعذاب الدّائم في الآخرة"[1]، ويبقى الله منزَّهًا عن الضَّرر، مهما تطاول البشر؛ لأنَّه تعالى من ورائهم محيط، ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨﴾ [الأنعام: 18].

نكتة تنكير لفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـٔٗا﴾، جاء التَّعبير فيه عن الشَّيء، في الآية الكريمة بصيغة التَّنكير؛ ليدلَّ على التَّقليل والتَّهوين، وليكون شاملًا كلَّ شيء قليلًا، أو كثيرًا، ومهما كان نوعه[2]، فليس في وسعهم أن يفعلوا أقلَّ شيء، يقال له: إنَّه إضرار، إذا أراد الله تعالى أن يُذهب بهم، ويأتي بغيرهم، أي: "ولا تَضُرّونَهُ بتولّيكم وإعراضكم شَيْئًا من ضرر قطُّ؛ لأنَّه لا يجوز عليه المضارُّ والمنافع، وإنَّما تضرُّون أنفسكم"[3].

لا يلحق الله تعالى ضررٌ، ولا يطاوله بشر

دلالة الجملة في فاصلة الآية الكريمة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾، جاء ذلك في رأس الآية، تعليلًا للحكم السّابق، في قوله: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـٔٗا﴾، وجاء التَّعليل مؤكَّدًا؛ "لأنَّ العاصي فاعل بعصيانه فعلَ من يظنُّ أنَّ الله غافل عنه"[4]، وذلك للدَّلالة على هيمنة الله ورقابته، وأنَّ حفظه محيط بكلِّ شيء، ولا يخفى عليه معصية العاصين، ومعناه: "إنَّ ربّي قائم على كلِّ شيء بالحفظ والرَّقابة والهيمنة، وقد اقتضت سنَّته سبحانه أن يحفظ رسله وأولياءه، وأن يخذل أعداءه"[5].

لا يأمنَنَّ العاصي، فالرَّبُّ قد جعل كلَّ شيء محفوظًا

علَّة تقديم ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ على ﴿حَفِيظٞ﴾:

قدَّم النَّظم الكريم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ﴾، على المسند، في

الاهتمام بالشُّمول والإحاطة، أبلغ دلالة بصيغة التَّقديم

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 7/227.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 12/52 بترقيم الشّاملة آليًّا.
(3) إسماعيل، حقّي، روح البيان: 4/149.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/313.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/227.

قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾، ولم يقل على الأصل: (إنّ ربّي حفيظٌ على كلّ شيء)؛ لأنَّ الأهمَّ في السّياق هنا بيان استعلائه وقدرته[1]، فالإحاطة والشُّمول هما المرادان من الإخبار، ثمَّ جاء بيان على أيِّ صفة اشتملت وأحاطت هذه الإحاطة والشُّمول، وهي الحفظ والقدرة والعلم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(يستخلف) و(يستبدل):

الاستبدال هو قيامُ الشَّيْءِ مَقامَ الشَّيْءِ الذّاهِبِ، يقال: هَذا بَدَلُ الشَّيْءِ وبَديلُهُ[2]، وهو جعل شيء مكان آخر[3]. أمّا الاستخلافُ؛ فهو أن يَجيءَ شَيْءٌ بعد شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ[4]. "والخِلافةُ النّيابة عن الآخر، إمّا لغيبة المنوب عنه، وإمّا لموته، وإمّا لعجزه، وإمّا لتشريف المستخلف، وعلى هذا الوجه الأخير، استخلف اللّه أولياءه في الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فاطر: 39]"[5]. فالفرق بينهما: أنَّ الاستبدال لا يقتضي الإهلاك، فيكون الإبدال بالآخر وهو على قيد الحياة، كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمّد: 38]، أمّا الاستخلاف؛ فيقتضي الإهلاك للقوم العاصين، فلمّا كان هود عليه السلام، قد هدَّدهم؛ كان التَّهديد بإذهابهم واستئصالهم، والمجيءِ بقوم غيرهم، أوقعَ.

الاستخلاف: يقتضي الإهلاك، والاستبدال: لا يقتضيه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/313.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(3) الرّاغب، المفردات: (بدل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلف).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»